شرح كتاب

الفتن وأشراط الساعة

من صحيح مسلم

◈◈◈

الدرس الثاني

باب اقتران الفتن

وفتح ردم يأجوج ومأجوج

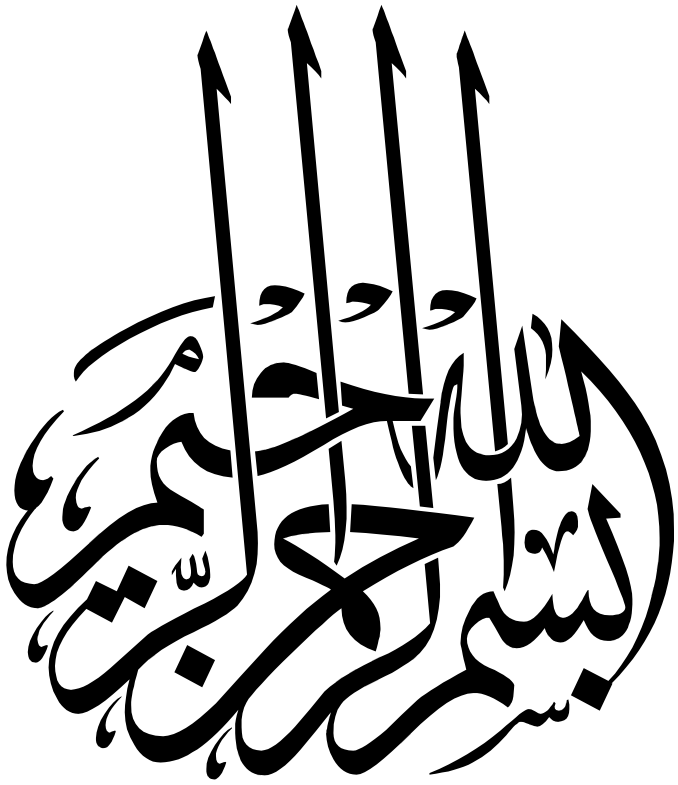
بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام مسلم -رحمه الله-:

[بَابٌ اقْتِرَابِ الْفِتَنِ وَفَتْحِ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ].

روىٰ الإمام مسلم -رحمة الله عليه- بإسناده:

[عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَعَقَدَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ عَشَرَةً، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»].

عن زينب بنت جحش -رضي الله عنها- أنّ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- استيقظ من نومه، وفي رواية -ستأتينا-: استقظ فزعًا خائفًا من هول هذا الأمر وهو يقول: لا إله إلا الله، قال العلماء: يؤخَذ من هذا: أنّ ذكر الله من أسباب السلامة من الفتن، وسيرد -إن شاء الله- في موطنه.

فمن أسباب السلامة من الفتن: أن يداوم الإنسان علىٰ ذكر الله، وسنذكر -إن شاء الله- في موطنه أذكارًا بعينها فيها السلامة من الفتن -إن شاء الله عز وجل-.

قالت: وَهُوَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ»؛ «وَيْلٌ» هنا مقصودٌ به: حُلول الشر، وهو للتفجُّع، أي يتفجَّع عليهم من حُلول الشر.

و"ويل" في أصل المعنىٰ قيل: وادٍ في جهنم.

وقيل: وادٍ من صديد أهل جهنم.

وقيل: هو العذاب.

والمقصود به هنا -كما قلنا-: حلول الشر، وقوع الشر.

قال: « وَيْلٌ لِلْعَرَبِ»؛ هل العرب هم المختصون بفتنة يأجوج ومأجوج؟ الجواب: لا، لكن خصّ العرب بالذكر قال العلماء: لأمرين:

- الأمر الأول: أنهم كانوا معظم من أسلم إذ ذاك؛ والنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يهتم لأمر المسلمين.

- والأمر الثاني: للإنذار بأن الفتن إذا وقعت كان الهلاك أسرع في العرب، قال العلماء: هذا يؤخَذ في الفتن كلِّها؛ أنّ الهلاك في العرب في الفتن أسرع من غيرهم.

قال: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبْ»؛ أي أنّ قُرب ذلك الشر في غاية القُرب.

فكأنّ سائلًا سأل: لماذا تقول ذلك يا رسول الله؟ فنبَّه علىٰ السبب فقال: « فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ».

ردم يأجوج ومأجوج: هو السدّ الذي بناه ذو القرنين -الذي ورد في القرآن- بزبر الحديد وهي القطع من الحديد.

ويأجوج ومأجوج: من البشر، من ذرية آدم وحواء، وليس صحيحًا أنهم من ذرية آدم فقط، بل من ذرية آدم وحواء.

ورد في صفاتهم مالا يَثبُت؛ مِن قِصَرهم وصِغَرهم، وإنما المعلوم عنهم أنهم قومٌ أقوياء، لا طاقة لأحد في قتالهم، حتىٰ عيسىٰ -عليه السلام-، حتىٰ عيسىٰ -عليه السلام- الذي يقتل الدجال لا طاقة له بقتال يأجوج ومأجوج -كما سيأتي إن شاء الله-. وإذا أُرسِلوا علىٰ الناس أفسَدوا عليهم معايشهم.

«مِثْلُ هَذِهِ» هذا نائب فاعل لقوله: «فُتِح»، وأشار إلىٰ الحلْقة المبيِّنة بقوله: ((وَعَقَدَ عَشَرَةً)) هذه من أساليب العرب في عقد الأعداد. ما هو عَقْدُ العَشر؟ عقد العَشر: أن يجعل طرف السبابة اليمنىٰ في باطن طيِّ عقدة إبهامه العليا، هكذا، هذه عشر، إذا أُشير هذه إشارة للعشر، فيجعل طرف السبابة اليمنىٰ في طيِّ عُقدة الإبهام العليا، وهي إشارة إلىٰ مثل هذه الفتحة، والمراد أنه لم يكن في الردم ثَقْبٌ إلا في ذلك اليوم.

قال الحافظ ابن حجر: "وقد جاء في خبر مرفوع أنّ يأجوج ومأجوج يحفرون السدّ كل يوم، وهو فيما أخرجه الترمذي وحسّنه وابن حبان والحاكم وصححه، عن أبي هريرة رفعه: «في السد يحفرونه كلّ يوم، حتىٰ إذا كادوا يَخرقونه قال الذي عليهم: ارجعوا فستَخرِقونه غدا، فيُعيده الله كأشدّ ما كان، حتىٰ إذا بلغ مدّتهم وأراد الله أن يَبعثهم قال الذي عليهم: ارجعوا فستَخرِقونه غدًا إن

شاء الله» واستثنىٰ، قال: «فيرجعون فيجدونه كهيأته حين تركوه، فيخرقونه، فيَخرجون علىٰ الناس... » الحديث.

قال الإمام ابن العربي -رحمه الله-: "في هذا الحديث ثلاث آيات باهرات:

الأولىٰ: أنّ الله منعهم أن يوالوا الحفر ليلًا ونهارًا ".

انظروا يا إخوة! يحفرون في الليل والنهار حتىٰ إذا بقي قليل لا يُكملون، وإنما يقولون: ترجعون غدًا فتَخرقونه، فإذا عادوا وجدوه كهيأته، مَن الذي صَرَفهم عن أن يواصلوا الحفر ليلًا خاصة بعد التكرار؟ صرفهم الله، لأنّ الله جعل لخروجهم أجلًا.

قال: "الثانية: منْعُهم أن يحاولوا الرُقيَّ علىٰ السد بسُلّم أو آلة فلم يُلهِمُهم ذلك ولا علَّمهم.

الثالثة: أنه صدّهم أن يقولوا: إن شاء الله؛ حتىٰ يجيء الوقت المحدود".

قال الحافظ ابن حجر: "قلتُ: وفيه: أنّ فيهم أهل صناعة"، لماذا أهل صناعة؟ لأنهم يحفرون، ففيهم أهل صناعة. قال: "وأهل ولاية وسلاطة"؛ لأنه قال: فيقوم الذي عليهم؛ إذن لهم والي. قال: "ورعيّة تطيع من فوقها"؛ لأنه يقول لهم ارجعوا فيرجعون. "وأنّ فيهم مَن يعرف الله"؛ لأنه يقول: إن شاء الله. قال: "ويُحتمَل أن تكون تلك الكلمة تجري علىٰ لسانه من غير قصد للحكمة التي أرادها الله".

قالت -رضي الله عنها-: ((أَفنُهْلَكْ)) أو ((أَفَنَهْلِكْ))؛ كلاهما ورد. فإذا قلنا ((أَفَنُهْلَكْ)) فهذا من الإهلاك، وإذا قلنا ((أفنَهلِك)) فهذا من الهلاك.

((وَفِينَا الصَّالِحُونْ؟!)) أي أنعذَّب فنهلِك نحن معشر الأمة والحال أنّ بعضنا مؤمنون وفينا الطيّبون الطاهرون؟! نعم، من أين عرفتْ أنه يبقىٰ في الأمّة صالحون؟ من إخبار النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-؛ «لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق ظاهرين حتىٰ يأتي أمر الله».

قال -صلىٰ الله عليه وسلم-: «نَعَمْ» أي يَهلِك الطيّب أيضًا، أو يُهلَك الطيّب أيضًا.

«إذا كَثُرَ الخَبَثْ»؛ فسّره العلماء: بالزنا، إذا كثر الزنا وفشا.

وفسّره بعض أهل العلم: بأولاد الزنا.

وفسّره بعض أهل العلم: بالفجور كلّه، أن يُعلَن الفجور؛ من التهتُّك في اللباس، فتكشف المرأة عن عوراتها، ويكشف الرجل عن عوراته، وينتشر هذا بين الناس، ويرضىٰ الرجل لامرأته أن تجلس مع صديقه يُسلّيها وتسليه بخلوة أو بحضوره من غير حجاب، تضحك مع صديقه أشدّ ما تضحك مع زوجها، وهذا نوعٌ من أنواع الدِّياثة -والعياذ بالله- وهو فجور. والزنا واللواط وغير ذلك من أنواع الفجور، والعياذ بالله.

قال الحافظ ابن عبد البَّر: "وجملة القول في معناه: أنه اسمٌ جامعٌ؛ يجمع الزنا وغيره من الشر والفساد، والمنكر في الدِّين".

فإذا فشا المنكر في الدين وفشا الفساد وفشا الشر كانت الأمّة عُرْضةً للهلاك.

قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: "كان يُقال إنّ الله لا يُعذِّب العامّة بذنب الخاصة، ولكن إذا صُنِع المنكر جَهارًا استحقوا العقوبة". وهذا معناه: إذا قَدِروا علىٰ الإنكار فلم يُنكِروا.

قال ابن العربي -رحمه الله-: "فيه البيان بأنّ الخَيِّر يُهلَك بهلاك الشرِّير؛ إذا لم يُغيِّر عليه خَبَثَه أو خُبثَه، وكذلك إذا غيَّر عليه لكن حيث لا يُجدي، ويُصرُّ الشرير علىٰ عمله السيّئ ويَفشُوا ويَكثر حتىٰ يَعُمّ الفساد؛ فيَهلَك حينئذ القليل والكثير، ثم يُحشَر كلُّ أحدٍ علىٰ نيّته".

وكأنّ أم المؤمنين -رضي الله عنها- فهمتْ من فَتح القدر المذكور من الردم؛ أنّ الأمر إن تمادىٰ علىٰ ذلك اتّسع الخَرق؛ بحيث يخرجون، وكان عندها علم في أنّ خروجهم فيه إهلاكٌ للأمّة، ولذلك سألت فقالت: ((أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونْ؟!)).

وسيأتي -إن شاء الله- الكلام عن خروج يأجوج ومأجوج إن كتب الله وقتًا، وسنتكلم هناك عن حالهم وما يكون فيهم.

وفي هذا الحديث الذي معنا؛ أنّ نار الفتنة إذا وقعتْ في موضع واشتدت ولم يُنكرها أهل الخير أكلت الرطب واليابس، وغلبت علىٰ الطاهر والنجس، وأخذتِ البَرّ والفاجر.

قال ابن بطَّال -رحمه الله-: "أنذر النبي صلىٰ الله عليه وسلم في هذا الحديث بقُرب قيام الساعة" لماذا؟ قال: "كي يتوبوا قبل أن تهجم عليهم، جاء في حديث أبي هريرة رفعه: «ويل للعرب من شر قد اقترب، موتوا إن استطعتم» -فالموت أهون-، قال: وفي هذا غاية التحذير من الفتن والخوض فيها".

ومن مراد الإمام مسلم -رحمه الله- من البَدء بهذا الحديث: بيان أنّ الفتنَ إذا نزلت لا تصيب الظالم فقط وإنما تصيب الجميع، وهذا يوجب علىٰ الجميع الحذر منها.

فلا ينبغي للإنسان أن يقول: أنا مالي وهذه الفتنة؟ أنا الحمد لله بعيد عنها! بل الواجب أن يقوم بما يقدِر عليه؛ ولو أن يُحصِّن أبناءه وبناته ومن حوله، بأن يُعلِّمهم ويبيّن لهم.

يقول الله -عز وجل-: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وهذه طريقة أهل العلم -يا إخوة-، طريقة أهل العلم أنهم يبدؤون الكلام عن الفتن ببيان أنّ الحذر منها لازمٌ للجميع، لا يخرج من التحذير أحد.

ولذلك؛ البخاري -رحمه الله- بدأ كتاب الفتن بالآية: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾.

والإمام مسلم -رحمه الله- بدأ هذا الكتاب بهذا الحديث الذي ورد فيه أنّ الفتنة يَهلِك فيها الصالح وغيره، ليَحذر الجميع.

فأراد -رحمه الله- أن يُبيّن أثر الفتن علىٰ الناس؛ ليُعطيها الناس ما تستحقه من اهتمام ويأخذوا بأسباب النجاة منها وينكروا ما يقع منها.

[وَعَنْهَا -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قالت: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يَوْمًا فَزِعًا مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ»].

نعم، خرج يومًا فزعًا محمرًّا وجهه قد استيقظ من منامه، فإذا كان هذا -يا إخوة-، إذا كان حال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- هذا، فكيف بغيره؟! كيف بنا يرىٰ الواحد منّا الفتن تموج موجًا ولا يخاف، ولا يَحذر، ولا يُحذِّر، ولا يُنكر، ولا يُبيّن؟ لاشك أنّ الغفلة فينا عظيمة.

[يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ »، وحلّق بأصبعه الإبهام التي تليها]. كما قلنا في السابق.

[قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم قال: «فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»، وعَقَد وُهَيْبٌ بيده تسعين".

نعم، هذا مثل ما مضىٰ، لكنّ الجديد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ وُهَيْبًا -رضي الله عنه- أحد الرُّواة عَقَدَ بيده تسعين، فما عقد التسعين؟ عقد التسعين قالوا: أن يجعل طرف السبابة اليمنىٰ في أصلها ويضمُّها فتكون كالحيَّة المنضمّة إلىٰ بعضها، يعني هكذا، يضع طرف السبابة في أصلها -أصل السبابة- من أسفل ويضمُّها مُحكَمة حتىٰ تكون كهيأة الحيَّة.

طيّب؛ هنا ستَلحظون شيئًا: في الحديث السابق كان العَقْد هكذا فهذه حلْقة، وفي هذا الحديث الحلْقة هكذا، ففرقٌ بينهما، فهذا شيء يسير وذاك أكبر منه!

ولذلك؛ قال بعض أهل العلم: لعل أبو هريرة -رضي الله عنه- روىٰ الحديث في أوّل الأمر عندما كان الخَرق يسيرًا، ثم اتّسع.

وقال بعض أهل العلم: لعل المراد من ذلك التقريب.

لكنّ اختلاف الصفتين -حقيقةً- يُشعِر باختلاف المعنىٰ، فيظهر -والله أعلم- أنّ في ذلك إشارة بأنّ الخَرق يتّسع بمرور الأيام، فهم في أوّل الأمر كانوا يَخرِقون مقدار هذا، ثم أصبحوا يَخرِقون مقدار هذا، ولا زال الخَرق يتّسع حتىٰ يكتب الله -عز وجل- لهم الخروج.

هذا ما يتعلّق بهذا الحديث الأوّل، فلعلّنا نكتفي به؛ لأنّ اليوم نقدّم للمسألة وغدًا -إن شاء الله عز وجل- نُكمل القراءة في هذا الكتاب المبارَك.

وأهمّ ما ورد -يا إخوة- هي قضية أنه يُراد بهذا الحديث: التحذير من الفتن، ومن التهاون بها، ومن السكوت عنها عند وقوعها مع القدرة علىٰ إنكارها.

فإذا وقعت الفتن سواء ما يتعلّق بالشبهات والبدع فمن الخطر العظيم أن يُسكَت عن البدع وأهلها. وإذا وقعت فتن الشهوات فمن الخطر ان يُسكَت عنها؛ لكن يُتكلّم بالأصول الشرعية؛ لأنّ من إنكار المنكر ما هو فتنة، من الناس من يكون إنكاره منكرًا يحتاج إلىٰ إنكار، فالمسألة تحتاج إلىٰ ضوابط شرعية ستردنا إن شاء الله، ونقرِّرها علىٰ أصولها من الأدلة الثابتة.

والله أعلم.